

التفاوت عند: "جان جاك روسو"

The inequality at Jean Jacques Rousseau

جمال برقاي⁽¹⁾. رياض طاهير⁽²⁾

جامعة الجزائر 2، الجزائر. djamelberkai6@gmail.com⁽¹⁾

جامعة ورقلة، الجزائر، tahirriad64@gmail.com⁽²⁾

تاريخ الاستلام: 2021/12/01؛ تاريخ القبول: 2025/01/24؛ تاريخ النشر: 2025/06/07

ملخص:

إن روسو يعتبر من الفلاسفة الأوائل الذين بحثوا في مسألة التفاوت بين الناس حيث تساءل كيف حدث هذا التفاوت وهل يقره القانون الطبيعي وهل هناك مشروعية لهذا التفاوت وما يجيزه في النظام الاجتماعي والسياسي؟

حيث كانت المساواة في الحالة الطبيعية مساواة تامة، ولم يكن الإنسان الطبيعي في حاجة إلى معونة أقرانه وكان مساويا لأقرانه من البشر لكن كل هذا تغير تغيرا راديكاليا بسبب الظروف الطبيعية القاسية كالبرد المجذب والحرارة الشديدة، وبعض الأحداث المفاجئة التي حدثت مثل ظهور الملكية الفردية، وظهور الإنسان التاريخي حيث أصبح مضطهدا من طرف المؤسسات الفاسدة التي اخترعها، وأصبح يعيش في اغتراب في المجتمع السياسي الفاسد.

كلمات مفتاحية: المساواة؛ الإنسان التاريخي؛ الملكية الفردية؛ التفاوت بين الناس؛ المجتمع السياسي الفاسد.

Abstract:

Rousseau is considered one of the first philosophers who researched the issue of inequality between people, as he wondered how this inequality occurred and is it approved by natural law and is there legitimacy for this

inequality and what allows it in the social and political system? He needed the help of his fellow human beings, and he was equal to his fellow human beings, but all of this changed radically due to harsh natural conditions such as sterile cold and extreme heat, and some sudden events that occurred such as the emergence of individual property and the emergence of historical man, where he became oppressed by corrupt institutions. Which he invented has become living in alienation in the corrupt political society.

Keywords: equality; historical men; private property; inequalities against men; corrupt society.

المقدمة:

إن روسو بحث في مسألة التفاوت بين الناس، والذي أسسته الملكية الفردية، والتي كان روسو يعتبرها شراً، والتي أسست أيضاً للفساد الأخلاقي الذي كانت تعيشه البشرية فيما بعد، وإن روسو أراد أن يقوم بعملية نقد للحضارة الأوروبية وللمجتمع الأوروبي، وللتقدم الحاصل آنذاك حيث أفقد الإنسان إنسانيته وحرية، وطيبته وأصبح الإنسان يعيش في أغلال مصطنعة وفي اغتراب واستغلال كرسسته الملكية الفردية والتفاوت الاصطناعي المبني على القوة والصراع والاحتكار بلا حدود وعلى الأنانية والتسلط والسيطرة على الآخرين وقهرهم. ويرى "روسو" أن الإنسان في عصره مكبل في قيود مصطنعة: الفساد الأخلاقي، التفاوت الاجتماعي، الاستبداد السياسي: -فنى الإنسان منحنى أخلاقياً ومقهور سياسياً.* ويتساءل "روسو": - هل التفاوت طبيعي له ما يبرره في القانون الطبيعي؟ أم هو اصطناعي عرضي وتعسفي ليس له ما يبرره في القانون الطبيعي وأن وجوده في المجتمع ليس له أي شرعية في الأنظمة السياسية والاجتماعية وكيف ظهر وحدث في المجتمع؟ - واستعملنا في تحليلنا لهذه الإشكالية: -المنهج التحليلي، لتحليل موضوعنا هذا.

1-المساواة والتفاوت في الحالة الطبيعية عند روسو:

إن المساواة في الحالة الطبيعية كانت مساواة مطلقة: -بحيث أن الطبيعة أحسنت صنع الإنسان الطبيعي من الناحية الجسدية، وكان لديه مناعة صحية جسدية قوية، "وكان الإنسان الطبيعي فيها مساوياً لكل إنسان آخر إذ لم يكن هناك أدنى تمييز بين الإنسان وأخيه الإنسان، ولم يكن هناك لا حاكم ولا محكوم، ولا متعلم ولا جاهل، ولا غني

ولا فقير، كان كل إنسان متساوي تماما لكل إنسان آخر⁽¹⁾. لم تكن اللامساواة موجودة في الحالة الطبيعية، كلما كان هناك فروق فيزيقية طبيعية بين أفراد كانوا يعيشون متفرقين في الطبيعة، ولم يكن الإنسان الطبيعي بحاجة إلى معونة أقرانه من البشر في هذه الحالة، ولم يكن بحاجة إلى الاجتماع بهم أو لإقامة أي علاقات معهم أو حتى معرفتهم، "وإن همه الوحيد تقريبا هو أن يحفظ ذاته، ويكون قلبه في سلام وجسده في صحة جيدة"⁽²⁾.

وإن حل مسألة أصل اللامساواة يقتضي كشرط مسبق على حد تأكيد روسو معرفة الإنسان الطبيعي، كما صنعه الطبيعة. "ولبلوغ هذه المعرفة، لا بد أن نميز في الإنسان ما كان ملازما له منذ البداية عن جميع التغييرات التي أحدثها تعاقب الأزمان، والأشياء في جبلته الأصلية، ومن المؤكد أن الفصل بين ما هو فطري وما هو مصطنع في طبيعة الإنسان الحالية، ليس بالأمر السهل فقد غير التقدم، وتراكم الأخطاء والعلوم الجديدة، وصدمة الأهواء المدمرة غيرت جميعها النفس البشرية حتى بات صعبا التعرف عليها"⁽³⁾.

إن التفاوت الطبيعي المتمثل في الفروق الجسدية، والمتمثلة بدورها في القوة الجسدية هي التي ستحدد مستقبل الإنسان في ما بعد، وستحدث تغييرا جذريا عند تأسيس الملكية، والمجتمع السياسي الفاسد والإنسان التاريخي، للمحافظة على أملاكه، وحمايتها من المعتدين عليه، "ومع ذلك فإن البحث عن طبيعة الإنسان أمر واجب لا غنى عنه فإن لم نكشف عن حقيقة الإنسان الطبيعي، والإنسان في الحالة الطبيعية، استحال علينا أن نفهم القانون الطبيعي الأكثر ملاءمة لتكوينه، والأسس التي قام عليها المجتمع البشري، وتنظيمه السياسي وأسباب ظهور اللامساواة"⁽⁴⁾، فالتفاوت الاصطناعي بدأ مع ظهور الملكية الفردية، وباجة الإنسان إلى الاجتماع وبظهور العمل في جماعات مع ظهور الفلاحة والزراعة وتطور بعد ذلك مع ظهور الحديد لتطوير الزراعة، والرفع من وتيرة الإنتاج ومن ثمة تحريك دواليب الإنتاج والاقتصاد:- لتلبية حاجياته مع ظهور المجتمع السياسي الفاسد

(1)-محمد علي عبد المعطي: الفكر السياسي الغربي، الناشر دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1993، ص291.

(2)-موسى إبراهيم: الفكر السياسي الحديث والمعاصر، دار المنهل اللبناني للدراسات، التوزيع مكتبة رأس النبع، الطبعة الأولى، بيروت، 2011، ص152.

(3)-ف.فولغين: فلسفة الأنوار، الطبعة الأولى، ترجمة هنرييت عبودي، الناشر : دار الطليعة للطباعة، بيروت لبنان، 2006، ص212.

(4)-ف.فولغين: فلسفة الأنوار، ص212.

والإنسان التاريخي والتقدم والحضارة فيما بعد، والتي جلبت، الصراع والدمار والخراب، والبؤس للإنسان وفقد سعادته وحرية.

إن النفس البشرية الشبيهة بتمثال غلوكوس الذي كان الزمن والبحر والعواصف قد شوهوه كثيرا بحيث يشبه الإله أقل ما يشبه حيوانا متوحشا، والتي فسدت في وسط المجتمع السياسي الفاسد بألف سبب متجدد باستمرار، وذلك من خلال اكتساب كثرة من المعارف والأخطاء، ومن خلال التغييرات التي حصلت في تكوين الأجسام ومن خلال الصدمة المستمرة للشهوات، "وإن هذه النفس البشرية إذا صح القول في مظهرها، لحد أنها أصبحت غير معروفة، وأننا لم نعد نجد فيها بدل الكائن الذي يتصرف دائما انطلاقا من مبادئ دائمة وثابتة، إلا التناقض المشوه للشهوة التي تعتقد أنها تفكر، وللإدراك وهو في حالة هيجان"⁽¹⁾.

كان الإنسان يتمتع بمناعة قوية وبقوة جسدية، فالطبيعة أحسنت صنعها. فلم يكن يعتمد على الآخرين للحصول على حاجياته، فالطبيعة كانت تمدّه بما يحتاج من خيرات. "عاش البشر طيلة قرون على هذا المنوال، وهم على جهل بالحياة في المجتمع وبالملكية وبالأُسرة، ويكاد التباين بين البشر أن يكون معدوما في الحالة الطبيعية. وكذلك التفاوت واللامساواة"⁽²⁾.

كل هذا تغير بظهور ظروف طبيعية جد صعبة أرغمته، وفرضت عليه الخروج من هذه الحالة: -كالبرد المجذب والقارس، والحرارة الشديدة والعيش في بيوت، وفي تجمعات مع ظهور التملك ومن ثمة التفكير في العمل في جماعات للحصول على غذائه عن طريق الزراعة والفلاحة. "ثم اضطرتهم الفيضانات والزلازل إلى الاجتماع بصفة مستديمة، فاخترعت اللغة، وتغير السلوك، وبرز الحسد، ونشبت الخصومة"⁽³⁾.

"وتعتبر الأسرة الأنموذج الأصلي والأول لتكوين المجتمع السياسي"⁽⁴⁾. وما كان لغير

(1)- جان جاك شفالبييه:- تاريخ الفكر السياسي: من المدينة الدولة إلى الدولة القومية، الكتاب:2، ترجمة محمد عرب صاصيلا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة:1، بيروت، 1985، ص478.

(2)- ف. فولغين: فلسفة الأنوار، ص214.

(3)- يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، 2012، ص213.

(4)- جان جاك روسو: في العقد الاجتماعي: أو مبادئ الحقوق السياسية، ترجمة عادل زعير، اللجنة الدولية لترجمة الروائع الإنسانية (اليونيسكو)، مؤسسة الأبحاث العربية، الطبعة:2، بيروت، 1995، ص30.

الزمن كما يقول روسو أن يحمل البشر البدائيين على التطلع إلى الخروج من حالتهم الأصلية التي كانوا يمضون في ظلها أيامهم في طمأنينة وبراءة، "وما كان هذا الانعطاف في حياة البشرية ليتم لو لم يكن الإنسان بطبيعته أهلاً للتقدم في مدارج الرقي"⁽¹⁾، وكون الإنسان كانت لديه المخيلة والقدرة على الابتكار فإنه قابل للتطور والتقدم، ومن ثمة اختراع وابتكار وصنع مؤسسات جديدة إما لشره أو لخيرته ومنه الاختراع والتأسيس للحضارة والتقدم الذي مارس الاضطهاد عليه فأصبح يعيش في اغتراب، "إن كل الناس متساوون بالطبيعة إنهم لا يمتلكون إذا تحدثنا بصورة عملية سوى صنوف من الوجود الفيزيائي، وإذا كانت هناك اختلافات في القوة، فإنه يكون لها معنى ضئيل لأن الأفراد ليس لديهم اتصال بعضهم ببعض لا يمكن أن يستمد من حالة الإنسان الطبيعية حق شخص ما في أن يحكم آخر"⁽²⁾.

ولم تحدث الملكية بصفة كاملة وبدفعة واحدة، لكنها حدثت بتدرج وباستمرار لأفكار مسبقة كانت وجدت قبل ظهورها. "لم يكن الإنسان الطبيعي شخصاً أخلاقياً، ولا شخصاً شريفاً، ولم يكن تقيساً، ولكنه واضح أنه لم تكن لديه ملكية، إذ أن الملكية نتجت عن أفكار وحاجات متوقعة، ومعرفة ومثابة"⁽³⁾.

لم يكن في بال الإنسان أن تنتزع منه هذه المساواة الطبيعية ويدخل في مرحلة اللامساواة، والتفاوت الاصطناعي بين الناس، وفي المجتمع السياسي الفاسد مع ظهور الإنسان التاريخي، ويدخل في المرحلة الاجتماعية، ويخترع العلوم والفنون التي كرسّت التفاوت بين الناس، وأنتجت بعد ذلك رذائل كثيرة مثل الحسد والأنانية والنفاق، "فكان أن ابتدع البشر حاجات مصطنعة أورثوا الأجيال اللاحقة وزرها الثقيل. وظهرت أشكال الفنون الأولى. وظهرت أشكال الفنون الأولى كالغناء، والرقص وغدت الفروق الجسمية، والفكرية بين البشر محسوسة، ومنظورة أكثر فأكثر فكانت بمثابة خطوئهم نحو اللامساواة. ولم يكن ثمة وجود للقوانين بعد، وكان الاستهجان العام والثأر عقاب

(1)-ف. فولغين: فلسفة الأنوار، ص 214.

(2)-ليو شتروس، جوزيف كروبسي: تاريخ الفلسفة السياسية: من جون لوك إلى هيدجر: الجزء 2، ترجمة محمود سيد احمد، مراجعة إمام عبد الفتاح المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة: 1، القاهرة، 2005. ص 143.

(3)-جورج سبائين: تطور الفكر السياسي، ترجمة علي إبراهيم السيد، مراجعة وتقديم راشد البراوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الجزء 4، ص 65.

الخارجين على الأصول الأولى للمعايير الاجتماعية⁽¹⁾، ومن هنا بدأت تظهر الأنانية القسوى للإنسان بأقصى أشكالها، حيث أراد الإنسان أن يسيطر ويتسلط على أقرانه من البشر، ويستغلهم أشد استغلال، وجعلهم حتى كعبيد بالنسبة له.

2-1- الحالة الطبيعية والتفاوت بين الناس:

يرى روسو أن الشر والتفاوت الاصطناعي ينجم من الملكية الفردية ومن المجتمع السياسي الفاسد حيث تبدأ الصراعات على من يكسب أكثر لكي يسيطر على الآخرين ويقهروهم، ويتسلط عليهم ثم يستعبدهم فيما بعد، "وفي كتاب "في أصل التفاوت بين الناس" صرح "روسو" بأنه لا يفترض وجود الحالة الطبيعية، فعلا وإنما يستحسن حالا متوسطة بين الحالة الطبيعية والحالة الاجتماعية يحافظ الناس فيها على البساطة والمساواة، ومنافع الطبيعة. ولا يريد رجوع المجتمع السياسي الفاسد الحاضر إلى الحالة الطبيعية. وإنما يعد المجتمع أمرا لا مفر منه مع فساد. وهو يعلل هذا الفساد بالتفاوت بين أفراد المجتمع في المعاملات والحقوق فيتغنى بالإنسان الطبيعي الطاهر. ويقول بتلك الحالة المتوسطة حيث تسود المساواة"⁽²⁾، ولكن هذه المساواة الطبيعية لم تدم طويلا وما إن بدأت تظهر اللامساواة حتى أصبح العمل ضروريا وتأسست الملكية وبدأ التفاوت يظهر بينهم فيما بعد، حيث يقول روسو في هذا الصدد: "ولكن ما إن احتاج الإنسان للاستقلال لمعونة إنسان آخر وما أن تبين أنه من النافع لشخص واحد أن يكون زاد شخصين اثنين حتى اضمحلت المساواة، وتسربت الملكية بينهم، وصار العمل ضروريا، وتحولت الغابات الواسعة حقولا باسمة، وجب أن تروى بعرق البشر، ولم تلبث العبودية، ولم يلبث البؤس ينبتان وينموان بنمو الحصاد"⁽³⁾.

2-2- التفاوت الطبيعي والاصطناعي بين الناس وظهور التملك والإنسان التاريخي:

إن التفاوت نوعين هناك تفاوت طبيعي وفيزيقي، وتفاوت أدبي وسياسي، ويقول روسو في هذا الصدد: "وأتصور وجود نوعين من التفاوت في الجنس البشري. فالنوع الأول هو ما

(1)-ف.فولغين: فلسفة الأنوار، ص 214.

(2)- جان جاك روسو: في أصل التفاوت بين الناس، المترجمون عادل زعيتر، اللجنة الدولية لترجمة الروائع اليونيسكو دار العالم العربي، القاهرة، 2011. ص 31

(3)-جان جاك روسو: "في أصل التفاوت بين الناس" ص 128

أدعوه الطبيعي أو الفيزيائي لأنه من وضع الطبيعة، ويقوم على اختلاف الأفراد الأعمار والصحة وقوى البدن وصفات النفس أو الروح. والنوع الثاني هو ما يمكن أن أدعوه التفاوت الأدبي أو السياسي؛ لتوقفه على ضرب من العهد أو الاتفاق ولقيامه، للإذن على الأقل⁽¹⁾.

ويقوم هذا التفاوت الاصطناعي على المواثيق، والمعاهدات والاتفاق والرضا ولكنه عرضي تعسفي قائم على القوة والسيطرة. ويحدث بتراضي الناس ويتألف هذا النوع "من مختلف الامتيازات التي يتمتع بها بعضهم إجحافاً بالآخرين كأن يكون أكثر من هؤلاء ثراء أو إكراماً أو قوة، أو أن يكون فيه في وضع ينتزع فيه الطاعة." ومن العبث أن يسأل عن مصدر التفاوت الطبيعي لوجود الجواب في تعريف الكلمة البسيط، وأقل من ذلك إمكان البحث عن وجود ارتباط جوهري بين التفاوتين وذلك لأن هذا يعني فقط أن يسأل بكلمات أخرى عن القابضين على زمام القيادة، أفضل ممن يطيعون بحكم الضرورة⁽²⁾.

وهذا لأن القوة هي التي كانت تسير هذا الوضع الذي تلا ظهور الملكية الفردية والتملك، ولأن الأقوياء هم الذين أملوا شروطهم، وقوانينهم على الضعفاء فيما بعد بالسيطرة عليهم وعلى أملاكهم، ومن ثمة استعبادهم واستغلالهم، واضطهادهم، حيث يقول روسو: "وما يكون موضوع هذه الرسالة بالضبط إذن؟ يقوم موضوعها على ملاحظتنا في نشوء الأشياء ذلك الوقت الذي يعقب الحق في العنف، وتخضع الطبيعة فيه للقانون، وعلى إيضاحنا سياق الخوارق الذي أزعج به القوي أن يخدم الضعيف وأن يشتري الشعب راحة خيالية بسعادة حقيقية"⁽³⁾.

وإن التفاوت عند روسو هو حجر الزاوية والركيزة الأساسية في المشروع الروسي لنقده للتقدم والحضارة، حيث بدأ منه روسو فلسفته، لكي يعطي لنا البديل للمجتمع السياسي الفاسد، والمبني على التفاوت الاصطناعي والاستغلال، والاستعباد. ولأن روسو هنا يبحث في موضوع الإنسان ومع الإنسان، حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وهذا ما أرى درسه في هذه الرسالة، وبما أن موضوعي بهم الإنسان على العموم فإنني سأحاول انتحال لهجة تلائم جميع

(1)- المصدر نفسه، ص31

(2)- المصدر نفسه، ص32

(3)- المصدر نفسه، ص32.

الأهم⁽¹⁾. وكان الإنسان الطبيعي المقابل للإنسان التاريخي يخضع إلى صرامة نمطية، ونسقية طبيعية وإلى استقرار نفساني وكان يخشى كل تغيير وكل التحولات المفاجئة، "وإن روسو لم يعترض على انعدام المساواة الطبيعية بخصوص العمر والصحة والذكاء، وإنما انصب اعتراضه على انعدام المساواة الناجم عن الامتيازات التي يخولها العرف"⁽²⁾.

2-1- ظهور الملكية الفردية وبداية التفاوت الاصطناعي:

يقول روسو في القسم الثاني من كتابه في أصل التفاوت بين الناس: إن أول إنسان قام بتسيير وتحديد قطعة أرضية، وقال إن هذه القطعة الأرضية ملك لي ووجد ناسا سذج يصدقونه هو المؤسس الحقيقي للمجتمع المدني الفاسد، حيث يقول روسو في هذا الصدد: "إن أول من سور أرضاً، وسمح لنفسه أن يقول هذا لي، فوجد أناساً لهم من السداجة ما يكفي لكي يصدقوه. كان المؤسس الحقيقي للمجتمع المدني. ألا كم من الجرائم كم من الحروب والقتل، وكم من الشقاوات والفظائع، كان لإنسان أن يكفي الجنس البشري شرها لو هب واقتلع الأوتاد، أو ردم الحفر وصاح بأشباهه من البشر قائلاً حذار أن تصغوا هذا الدجال، فإنكم لا هالكون إن أنتم نسيتم أن الثمار للجميع وأن الأرض ليست ملكاً لأحد"⁽³⁾. وهذا الإنسان يعتبر المجرم الأول الذي عرفته الإنسانية وهو أصل الشرور لأنه مؤسس الملكية الفردية، وبالتالي فهو مؤسس المجتمع السياسي الفاسد، وأصل كل الصراعات والنزاعات والحروب التي تنجم فيما بعد بين البشرية جمعاء.

"ولكن يظهر جلياً أن الأشياء قد بلغت قبلئذ نقطة لم يسعها فيه أن تدوم على ما كانت عليها، فإذا أن فكرة التملك هذه تابعة لأفكار سابقة لم تولد إلا بالتتابع، فإنها لم تتكون في ذهن الإنسان دفعة واحدة"⁽⁴⁾. فبدأ الصراع بين الناس مع ظهور الملكية الفردية التي يعتبرها روسو شراً، ومع ظهور فكرة التملك للأرض، والسيطرة على الآخرين والتسلط

(1)-جان جاك روسو: "في أصل التفاوت بين الناس" ص33.

(2)-برتراند راسل: تاريخ الفلسفة الغربية، الكتاب:3، الفلسفة الحديثة، ترجمة: محمد فتحي الشنيطي، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، 1988، ص292.

(3)- Rousseau Jean Jacques, discours sur l'origine et les fondements de l'inégalité parmi les hommes, édition électronique v1.0 les échos du maquis, Paris, 2011, p44.

(4)-جان جاك روسو، في أصل التفاوت بين الناس، (ترجمة: بولس غانم)، الطبعة:1، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2009، ص117.

عليهم، وأصبحت القوة هنا العنصر الأساسي التي تحدد مصير الحياة والملكية للأرض وباقي الأشياء هنا في هذه الفترة التي يتكلم عليها "روسو". حيث يقول روسو في هذا الصدد: "حتى بعد أن يلقي الشر عن غيره، فكما يقول المثل المأثور عن "لوك" الحكيم"، حيث لا توجد ملكية لا توجد شتيمة"، ولكن ينبغي أن نلاحظ أن المجتمع وقد تم له البدء، والعلاقات قد أرسيت بين البشر، فلقد اقتضى ذلك من البشر صفات تختلف عن تلك التي جاءتهم من تكونهم البدائي"⁽¹⁾، فدخل الإنسان في حالة فوضى عارمة وحرب، وصراع مع أقرانه من البشر، ودخل في حالة حرب مع الآخرين وفي تناحر مستمر معهم. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "كان كل إنسان حكما أوحده يثار لنفسه، عما يلقاه من إساءات قبل ظهور القوانين، فإن الخيرية التي كانت تلائم الحالة الطبيعية الخالصة لم تعد تلك التي تلائم المجتمع الناشئ، وأنه كان لابد للعقوبات من أن تصبح أشد صرامة بقدر ما تصبح شروط الإساءة أكثر توترا"⁽²⁾.

وإن المساواة عند روسو أيضا مساواة أخلاقية معنوية، فمن واجبات الدولة أن تنشر روح المساواة بين مواطنيها، "وَألا تمارس إلا بحسب الدرجة، وبموجب القوانين، وألا يخول الغني صاحب القدرة على شراء الآخرين ولا يجبر الفقر صاحبه على بيع نفسه إلى الآخرين، ليخفف القوي من طغيانه والغني من جشعه والضعيف من حقه والفقر من حسده"⁽³⁾.

وكان لابد من تغيير هذا الوضع الذي ألحقه به المجتمع السياسي الفاسد والإنسان التاريخي، وبناء مجتمع سياسي جديد قائم على العقد الاجتماعي والرضا. وإن الإرادة العامة هي التي ستسير هذا الجهاز الاصطناعي عن طريق القانون الناجم عنها، وإن هذا التغيير سيضمن الحرية المدنية للإنسان ويحمي ممتلكاته، "وإيمان منه بأن المساواة في جانب من جوانبها لها علاقة بالملكية الفردية، وأن هذه الأخيرة هي صورة من صور سيطرة الإنسان على الإنسان الآخر، فإنه يرى وجوب وضعها (الملكية الخاصة) تحت رقابة الإرادة العامة، وأنه يجب أن تجعلها دوما محدودة ومحصورة إلى أقصى حد"⁽⁴⁾.

(1)-المصدر نفسه: ص125.

(2)-المصدر نفسه: ص126.

(3)- فضل الله محمد إسماعيل: رواد الفكر السياسي الغربي الحديث، كلية الآداب بدمههور، جامعة الإسكندرية، مكتبة بستان المعرفة طباعة ونشر وتوزيع الكتب، الإسكندرية، 2006، ص: 114.

(4)-المرجع نفسه ص: 114.

2-2- الإنسان التاريخي عند روسو:

هو إنسان الإنسان كما يسميه روسو، وهو المقابل للإنسان الطبيعي. والإنسان التاريخي هو الإنسان الذي دخل معترك التاريخ: حيث أصبح فاسدا أخلاقيا، ومستغل اقتصاديا، ومكبل سياسيا وهو مؤسس الملكية الفردية، ويعتبره روسو أول مجرم عرفته الإنسانية: حيث فقد حريته الطبيعية، وبالتالي هو مؤسس المجتمع السياسي الفاسد المبني على الاستغلال والقوة والقهر والاستعباد والتسلط، وهو مؤسس الملكية الفردية. وهذه الملكية الفردية هي التي أسست للتفاوت الاصطناعي، واللامساواة وما نتج عنها من فروقات اقتصادية واجتماعية وسياسية، فيما بعد وكل ما ينجم عن ذلك من تناحر وصراع وقتال، فأصبحت الأرض مسرحا لاقتتال عنيف ودموي بين البشر من أجل تملك أكثر نصيب من الأراضي، فدفعت البشرية ثمنا باهظا بسبب الملكية والتملك بلا حدود للأراضي، ومن ثمة السيطرة على الآخرين واستغلالهم واستعبادهم فيما بعد.

كون الإنسان كان يعيش في الحالة الطبيعية، فإنه كان يتمتع بالحقوق الطبيعية، وكان يعيش في مساواة تامة، ثم فقدها مع ظهور الملكية والمجتمع السياسي الفاسد، وأصبح مكبل يعيش في اغتراب واضطهاد، وتهان وضياع وفي أغلال اصطناعية هو صنعها بنفسه، وهي المؤسسات السياسية الفاسدة والتفاوت والاستغلال، وأصبح فيها الظلم مدسرا، وهذه المؤسسات مبنية على القوة والتعسف والاضطهاد. فالنفاق والأنانية والحسد هي صفات موجودة في المجتمع المتمدن حسب روسو، وحصلت للإنسان عندما دخل معترك التاريخ، ودخل في المجتمع السياسي الفاسد والمبني على مؤسسات فاسدة، والذي أصبح فيه الصراع والقتال السمة الأساسية، فالإنسان الطبيعي يعيش من أجل ذاته أما الإنسان التاريخي يعيش من أجل الآخرين. فالإنسان التاريخي الفاسد أخلاقيا يقابله إميل، والذي هو المواطن الصالح والذي يعيش في المجتمع السياسي الفاضل والمؤسس بواسطة العقد الاجتماعي. فالإنسان الطبيعي مساوي لأقرانه، وخير بطبعه وعندما دخل معترك التاريخ مع ظهور الملكية الفردية، وظهور الإنسان التاريخي والمجتمع السياسي الفاسد: أصبح فاسد أخلاقيا ومستغل اقتصاديا ومقهور سياسيا، أينما تنظر تراه في أغلال. "وهكذا يفضي فساد الأخلاق إذ ينجر عن الترف والحضارة بالضرورة إلى فساد الذوق"⁽¹⁾.

(1)-جان جاك روسو، مقالات: في العلوم والفنون، في الاقتصاد السياسي، في أصل اللغات، ترجمة ومراجعة: جلال

إن سيرورة اللامساواة عند روسو تمر إذن عبر ثلاث مراحل إقرار القانون، وحق الملكية وتأسيس الولاية، وتأسيس المجتمع السياسي الفاسد.

3-بداية التقدم وظهور المجتمع السياسي الفاسد:

إن اختراع فن الصناعة المعدنية والزراعة أدى إلى إحداث ثورة صناعية كبيرة، وإلى حدوث التقدم المدني والسير قدوما نحو تأسيس الحضارة. حيث يقول في هذا الشأن: "كانت الصناعة المعدنية، والزراعة ذلك الفئتين اللذين أدى اختراعهما إلى هذه الثورة الكبيرة، وهكذا فإن سبب تمدن البشر وهلاك النوع البشري إنما هو الذهب والفضة بالنسبة إلى الشاعر، وهو الحديد والحنطة بالنسبة إلى الفيلسوف" (1).

فالحديد لعب دورا هاما في تقدم، وتطور أوروبا اقتصاديا وكانت سباقة إلى التقدم الصناعي، كونها منطقة غنية بالحديد ولديها ثروة هائلة في هذا المعدن، "ومن أوجه الأسباب التي تعلل لماذا كانت أوروبا مقارنة بغيرها من مناطق العالم الأسبق أو على الأقل الأفضل، والأثبت تنظيما سياسيا، فربما كونها أغنى البلاد حديدا وأخصبها قمحا" (2).

لأن الحديد ساهم في تطور الصناعة بابتكار الآلات وصناعة آلات جديدة تحل محل الجهد البشري الذي يقوم به الإنسان أثناء العمل وساهمت في تحريك آلة الإنتاج وتطوير وازدهار الاقتصاد الأوروبي، وتقدم الأمم الأوروبية صناعيا وتقنيا. ومن الصعب أن نعرف كيف وصل البشر إلى اكتشاف معدن الحديد وكيف استعملته البشرية في البداية. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "من العسير أن نتكهن كيف توصل البشر إلى معرفة الحديد واستعماله، ذلك أن ما لا يصدق هو أن يكونوا قد تخيلوا من تلقاء أنفسهم كيف يستخرجون مادة الحديد من المنجم وكيف يجرون عليها التحضيرات اللازمة لصهرها، وهم لا يعرفون بعد ما الذي سينتج من ذلك" (3).

وهكذا يتبلور التفاوت الطبيعي مع التفاوت المركب رويدا، رويدا، كما أن الفروق بين

الدين سعيد، محمد محجوب، مؤمنون بلا حدود للأبحاث للنشر والتوزيع، الطبعة: 2، بيروت، 2017، ص 35

(1)- Rousseau Jean Jacques, de l'inégalité parmi les hommes, collection: folio essai, édition Gallimard, Paris, 1989.p49.

(2)- جان جاك روسو: في أصل التفاوت بين الناس: ص 128.

(3)- المصدر نفسه: ص 128.

البشر، "وقد زادت نمو الفروق الظرفية، تصبح أبرز وأدوم من حيث نتائجها، وتأخذ تؤثر في مصير الأشخاص بالنسبة لنفسها"⁽¹⁾، بدأ التفاوت مع اختراع الفنون الأخرى ومع تطور اللغات وتقدمها، وتطوير في استخدام المواهب بدأ التفاوت يكبر ويحدث فجوة كبيرة بين الناس، حيث يقول "روسو": "وإذ بلغت الأمور هذا المبلغ، فمن السهل أن نتخيل البقية. لن أتولى وصف ما تعاقب من اختراعات لفنون أخرى، ولا وصف طراً على اللغات من تقدم، ولا وصف ما جرى من اختبار واستخدام للمواهب، ولا التفاوت في الحظوظ، ولا الارتفاع بالثروات أو الشطط فيها"⁽²⁾، وحدثت تفاصيل جديدة، والتي يمكن لكل فرد أن يلاحظها ويفهمها بطريقة سهلة والذي أسس إلى نسق وتحول جديد للأشياء، حيث يقول روسو في هذا الصدد: "ولا غير ذلك من التفاصيل التي تنشأ عن هذه الأشياء، والتي يسهل على كل إنسان أن يستدركها نفسه، وإنما سأكتفي بإلقاء نظرة واحدة على الجنس البشري من زاوية موقعه في نظام الأشياء الجديد هذا"⁽³⁾.

وإن كلمة السلطة والحكومة لم تكونا موجودتان آنذاك، وأن الحاجة والضغط والرغبة هي التي أملت على اكتسابها ونقلها إلى هذه الحالة، ومن ثمة التأسيس للمجتمع السياسي الفاسد، وظهور التفاوت بين الناس. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "قبل إمكان وجود معنى كلمتي السلطان والحكومة بين الناس وأخيراً تكلم الجميع بلا انقطاع عن الاحتياج، والطمع والضغط والرغبة والزهو"⁽⁴⁾، ولقد جرى هذا التحول طبقاً لتحول تاريخي يذكر روسو خطوطه الكبرى: "إننا نرى أولاً وضع قانون وحق الملكية الفردية، ونرى ثانياً إقامة المحاكم، ونرى ثالثاً وأخيراً تحويل السلطة الشرعية إلى سلطة استبدادية، فالمرحلة الأولى خلقت الفقراء والأغنياء، والمرحلة الثانية خلقت الضعفاء والأقوياء"⁽⁵⁾، في هذه المرحلة: ابتدع الأغنياء حيلة مكررة للإيقاع بالفقراء واختراع الجهاز الاصطناعي (الدولة)، لحماية أملاكهم من الفوضى التي نشأت من الصراعات والحروب، التي تلت ظهور الملكية والتملك، "والمرحلة الثالثة خلقت العبيد والأسياد. وهي أقصى درجات عدم المساواة، التي تنتهي إليها

(1)- المصدر نفسه: ص 131.

(2)- المصدر نفسه: ص 131.

(3)- المصدر نفسه: ص 128.

(4)- المصدر نفسه: ص 33.

(5)- أندري كريسون: روسو حياته فلسفته منتخبات : ص 83

المظالم. من هنا نبعت الشهوات الضارية، كشهوة التسلط والحسد، وحب الذات الجامح والأنانية القصوى، الذي يؤدي بالناس إلى حب "الظهور" ويتمثل بجميع أشكال البذخ والاحتيال وبجميع النقائص التي ترافقه. -ولا - لم يسهم البذخ ولا الأدب ولا الفنون: في سعادة البشرية، بل في إحراجها وإفسادها.⁽¹⁾ هنا يهاجم روسو التقدم والتفاوت الذي أدى بالإنسان إلى الهلاك، حيث أصبح الإنسان يعيش في اغتراب نظرا للاضطهاد الذي يمارس عليه من طرف الحضارة، والتقدم الذي أنشأه، وصنعه هو بيده وب عقله. "ويربط روسو نشأة المجتمع بظهور الملكية، ونشأة السلطة بحفظ المصالح"⁽²⁾.

لم يفكر روسو بتاتا في إلغاء الملكية، أو بالعدول عن التقدم فلقد كتب أن المجتمع الطبيعي، طبيعي للنوع الإنساني، وليست المسألة أن يعود الناس بالعيش مع الدببة وأن يحرقوا دور الكتب أنه لم يتم إلا بفرضية بحلم، ولكن هذا الحلم لا ينتهي في الاستكانة. "فإذا كان الإنسان تعيسا، فإن ذلك لأسباب اجتماعية وسياسية لا تدين بشيء إلى طبيعة الأشياء، فمن الممكن والضروري أن نضع أسس سياسة جديدة، وهذا ما سيكون موضوع العقد الاجتماعي"⁽³⁾.

3-1- العقد الاجتماعي:

يولد الإنسان أينما تنظر تراه مكبل في أغلال. ويولد الناس متساوين في الكرامة ولكننا لا نرى أية مساواة في أي مكان بينهم، ومن هنا تبينت هذه المشكلة: -"كيف السبيل إلى إقامة حالة اجتماعية، يتحقق فيها أولا - حماية متساوية لجميع المواطنين - وثانيا: حرية مضمونة لكل فرد"⁽⁴⁾. ويعتقد روسو أن هناك حل لهذا الوضع ولهذه المشكلة ولهذا التفاوت الاصطناعي. وقد بحث عن هذا الحل في كتابه "العقد الاجتماعي". حيث يرى روسو أن العقد الاجتماعي أقيم بين أناس متساوين، حيث يقول: "ولما جميعهم متساوين

(1)- المرجع نفسه: ص 83

(2)-جان توشار: بمعاونة: لويس بودان، بيار جانين، جان سيريلي: تاريخ الفكر السياسي: ترجمة الدكتور علي مقلد، الطبعة الثانية، الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1983، ص 334

(3)-جان توشار: تاريخ الأفكار السياسية من عصر النهضة إلى عصر الأنوار، ترجمة: الدكتور ناجي الدراوشة، الطبعة الأولى، دار التكوين للتأليف والترجمة، للنشر، دمشق، 2010، ص 569

(4)- أندري كريسون: روسو حياته فلسفته انتخابات: ص 83

وأحرار، فإنهم لا يتنازلون عن حريتهم إلا من أجل منفعتهم"⁽¹⁾.

لأن التفاوت الطبيعي هو الذي سيفرض التفاوت الاصطناعي في المجتمع السياسي الفاسد عن طريق القوة. "ويوجد حل وطريقة تتيح لكل واحد، ولكل إنسان أن يشعر بأنه حر في مجتمعه. وبأن حقوقه محترمة، وذلك ببناء هذا المجتمع على عقد أو ميثاق اجتماعي أي على التزام شرعي. يتضمن تنازل الفرد عن شخصيته وعن جميع حقوقه لمجتمعه"⁽²⁾، حيث يكون العقد الاجتماعي مبني على عامل الرضا لا عامل القوة والإخضاع كما يرى ذلك "هوبز"، ويكون العقد الاجتماعي عند روسو كعملية تصحيحية للمجتمع السياسي الفاسد الذي انبثق مع ظهور الإنسان التاريخي، ومن ظهور الملكية الفردية، ومن التفاوت البشري والاستغلال. "ويجب على كل من يريد أن يكون مواطناً في مجتمع أن يرضى بوضع شخصه وكل سلطته تحت تصرف إدارة الإرادة العامة، فإن لم يفعل، توجب عليه أن يبحث على جو آخر يلائم رغباته"⁽³⁾. فالإرادة العامة هي التي تسيّر العقد الاجتماعي وتوجهه، وتوجه السلطة إلى تحقيق الخير العام في المجتمع، وحماية حقوق المواطنين في الدولة لأن سيادة السلطة السياسية تنجم عن الإرادة العامة. "وإن الإرادة العامة ثابتة، ولا تفنى كما أنها تتميز بالنقاء، وهذه الصفات مشتقة من تصميم الأفراد على ضرورة الوصول إلى الغاية التي تم إنشاء المجتمع من أجلها وهي: تحقيق ما فيه الخير لهم، وتحقيق السلم والوحدة والمساواة"⁽⁴⁾.

خاتمة:

إن روسو يرى أن المساواة في الحالة الطبيعية كانت مساواة مطلقة وطبيعية، وكانت تعتمد على الفروق الجسدية، والفيزيائية الطبيعية للإنسان الطبيعي، ولم يكن هناك تفاوت اصطناعي بين الناس، وعندما دخل الإنسان معترك التاريخ مع ظهور الملكية الفردية وظهر الإنسان التاريخي، والمجتمع السياسي الفاسد: فأصبح فاسد أخلاقياً ومستغل اقتصادياً ومقهور سياسياً، أينما تنظر تراه في أغلال وأن التفاوت الاصطناعي الاجتماعي أو

(1)-د. محمد وقيع الله أحمد: مدخل إلى الفلسفة السياسية: رؤية إسلامية، دار الفكر، آفاق معرفة متجددة، مكتبة الأسد، دمشق، 2010، ص 180.

(2)- أندري كريسون: روسو حياته فلسفته منتخبات: ص 83

(3)-المرجع نفسه: ص 84

(4)- فضل الله محمد إسماعيل: رواد الفكر السياسي الغربي الحديث، ص 86.

السياسي الموجود في المجتمع ظهر مع ظهور الملكية الفردية والتي سببت الكثير من الشرور والصراعات بين البشر، والاقتتال من أجل من يملك أكثر حيث حدثت حروب طاحنة، ودامية وعنيفة لا نهاية لها بين البشر من أجل التملك والسيطرة على الغير والآخرين، وأن القوة هي الفضيلة الوحيدة والعنصر الوحيد التي تمكن الإنسان من التملك، والسيطرة وحماية أملاكه. وهكذا أصبحت القوة هي العنصر الأساسي التي تسير هذه الفترة لكي يحمي الإنسان أملاكه، ويحافظ عليها وعلى نفسه وعلى أسرته ومنزله، ووصلنا إلى الحالة التي تكلم عنها هوبز في كتابه التنين والتي هي حالة الحرب الكل ضد الكل: - والتي كان فيها الإنسان ذئبا للإنسان، حيث كان يعيش في صراع مستمر مع أقرانه من البشر، وكون الإنسان كان يعيش في الحالة الأولى مساواة تامة ومطلقة، وفي عدالة وفي سعادة، ثم فقدتها مع ظهور الملكية والمجتمع السياسي الفاسد وأصبح مكبل يعيش في تعاسة وشقاء، واغتراب واضطهاد وفي أغلال اصطناعية هو صنعها بنفسها وهي المؤسسات السياسية الفاسدة والمبنية على القوة والتعسف والاضطهاد وأصبح فيها الظلم مدسّراً. وفي مؤلفه العقد الاجتماعي يعطي روسو لنا الحل للخروج من هذا الوضع الذي وصل إليه الإنسان، والذي هو تصحيح الحضارة التي أنتجت لنا المجتمع السياسي الفاسد المبني على التفاوت الاصطناعي والاستغلال والقهر السلطوي والاضطهاد: ويبحث عن كيفية إرجاعها إلى سكتها الصحيحة، لأنه يريد تأسيس مجتمع سياسي جديد وفاضل، عن طريق العقد الاجتماعي مبني على الأخلاق والرضا والترخيص، والتعاقد بين الناس فيما بينهم لتأسيس الدولة القائمة على الإرادة العامة، والذي يعيش فيه إميل المواطن الصالح الذي سيربى تربية طبيعية. والخروج من هذا التفاوت الاجتماعي القائم على القوة والسطو والرديلة والذي أسسته الملكية الفردية والإنسان التاريخي.

المصادر والمراجع باللغة العربية

- 1- أحمد محمد وقيع الله، مدخل إلى الفلسفة السياسية: رؤية إسلامية، دار الفكر، أفاق معرفة متجددة، مكتبة الأسد، دمشق، 2010.
- 2- إبراهيم موسى، الفكر السياسي الحديث والمعاصر، دار المنهل اللبناني للدراسات، التوزيع: مكتبة رأس النبع، الطبعة: 1، بيروت، 2011.
- 3- توشار جان، تاريخ الأفكار السياسية من عصر النهضة إلى عصر الأنوار، ترجمة:

- الدكتور ناجي الدراوشة، الطبعة:1، دار التكوين للتأليف والترجمة للنشر، دمشق، 2010.
- 4- توشار جان، (بمعاونة): لويس بودان، بيار جانين، جان سيريلي: تاريخ الفكر السياسي، ترجمة الدكتور علي مقلد، الطبعة:2، الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1983.
- 5- راسل برتراند، تاريخ الفلسفة الغربية، الكتاب الثالث، الفلسفة الحديثة، ترجمة: محمد فتحي الشنيطي، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، 1988.
- 6- روسو جان جاك، مقالات: في العلوم والفنون، في الاقتصاد السياسي، في أصل اللغات، ترجمة ومراجعة: جلال الدين سعيد، محمد محجوب، مؤمنون بلا حدود للأبحاث للنشر والتوزيع، الطبعة:2، بيروت، 2017.
- 7- روسو جان جاك، في العقد الاجتماعي: أو مبادئ الحقوق السياسية، ترجمة عادل زعيتر، اللجنة الدولية لترجمة الروائع الإنسانية (اليونيسكو)، مؤسسة الأبحاث العربية، الطبعة الثانية، بيروت، 1995.
- 8- روسو جان جاك، في أصل التفاوت بين الناس، (ترجمة: بولس غانم. التقديم: عبد العزيز ليبب)، الطبعة:1، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2009.
- 9- روسو جان جاك، في أصل التفاوت بين الناس، المترجمون عادل زعيتر، (الإصدار د.ط)، اللجنة الدولية لترجمة الروائع اليونيسكو دار العالم العربي، القاهرة، 2011.
- 10- سباين جورج، -تطور الفكر السياسي، ترجمة علي إبراهيم السيد، مراجعة وتقديم راشد البراوي، (د ط)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الجزء:4، (د م ن)، (د ت ن).
- 11- شتراوس ليو، جوزيف كروبسي، تاريخ الفلسفة السياسية: من جون لوك إلى هيدجر، الجزء:2، ترجمة محمود سيد أحمد، مراجعة إمام عبد الفتاح المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة:1، القاهرة، 2005.
- 12- شفالبييه جان جاك، تاريخ الفكر السياسي: من المدينة الدولة إلى الدولة القومية، الكتاب:2، ترجمة محمد عرب صاصيلا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة:1، بيروت، 1985.
- 13- علي عبد المعطي محمد، الفكر السياسي الغربي، (الإصدار د.ط)، الناشر دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1993.
- 14- فضل الله محمد إسماعيل، رواد الفكر السياسي الغربي الحديث، كلية الآداب

بدمهور، جامعة الإسكندرية. مكتبة بستان المعرفة طباعة ونشر وتوزيع الكتب، الإسكندرية، 2006.

15- فولغين.ف، فلسفة الأنوار، الطبعة:1، ترجمة هنرييت عبودي، الناشر: دار الطليعة للطباعة، بيروت، 2006.

16- كريسون أندري، روسو حياته فلسفته منتخبات، ترجمة نبيه صقر، الطبعة: 4، منشورات عويدات، بيروت، 1988.

17- كرم يوسف، تاريخ الفلسفة الحديثة، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، 2012.
المصادر باللغة الأجنبية:

1- Rousseau Jean Jacques, discours sur l'origine et les fondements de l'inégalité parmi les hommes, édition électronique v1.0 les échos du maquis, Paris, 2011.

2- Rousseau Jean Jacques, de l'inégalité parmi les hommes, collection: folio essai, édition Gallimard, Paris, 1989.